بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شهرية بعنوان:

بين منهجين

النظامية و الجمودية (١)

كتبه

محمد بن سعيد الأندلسي

عفا الله عنه

شهر ذي الحجة من عام ١٤٤٢

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد فمن نظر في تاريخ البدع ونشأتها علم أنها تتقلب بين الإفراط والتفريط، فتحدث البدعة مقابلة لأختها بين الغلو والجفاء، وهكذا في كل زمان ومكان تظهر فيه مقالات مخالفة للحق، فلا تلبث أن تظهر بعدها ما يقابلها من المقالات بزعم دفع الباطل والرد عليه، وما هي إلا ردة فعل قادت صاحبها إلى الشذوذ والضلالة، ولا يبالي الشيطان بأيهما ظفر من الطرفين وكلاهما خرج عن الجادة الصحيحة وحاد عن الصراط المستقيم، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

ولا تكُ فيها مُفرِّطاً أو مُفرَّطاً   كلا طَرفي قَصدِ الأمورِ ذميمُ

ومن شؤم البدعة أن تولّد بإزائها بدعة مقابلة لها، ومن المصاب أن لا تجد من يدفعها ويذب عن السنة ويقمعها، حتى يصير ما معهم من الباطل بالتقادم وجهة نظر لصاحبها قد تحتمل صوابا، عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «لَأَنْ أَسْمَعَ بِنَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ بِنَارٍ تَحْتَرِقُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَسْمَعَ فِيهِ بِبِدْعَةٍ لَيْسَ لَهَا مُغَيِّرٌ وَمَا أَحْدَثَتْ أُمَّةٌ فِي دِينِهَا بِدْعَةً إِلَّا رَفَعَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُمْ سُنَّةً»[1]، ومن أعظم المقامات في الدين العمل على تخليص السنة مما لحق بها من بدع وضلالات وتصفية الحق من شبهات أهل الزيغ والجهالات، فعن عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أنه قال: «أَلَا وَإِنِّي أُعَالِجُ أَمْرًا لَا يُعِينُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، قَدْ فَنِيَ عَلَيْهِ الْكَبِيرُ، وكَبُر عَلَيْهِ الصَّغِيرُ، وَفَصُحَ عَلَيْهِ الْأَعْجَمِيُّ، وَهَاجَرَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ، حَتَّى حَسِبُوهُ دِينًا لَا يَرَوْنَ الْحَقَّ غَيْرَهُ»[2]، وإن كان هذا في عهده رحمه الله تعالى فكيف بحالنا والله المستعان.

---

[1] البدع لابن وضاح برقم ٨٧

[2] انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص٤٢).

والناظر في طفرة النظامية مع صحوة الجمودية أو " الأثرية المزيفة " يعلم ما سبق تقريره من المقابلة في البدع والقفز من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، فبعد ظهور طائفة من الناس تعظم كلام الرجال وتجعله حجة فيما بينها وبين الله عزَّ وجل، فجمدوا على ألفاظ شيوخهم وبذلوا جهدهم في البحث والتنقير عن الروايات والأوجه والاختيارات وذلك مبلغ علومهم طوال عمرهم ... فتراهم لا يصدرون عن أقوالهم الصماء كأنه الوحي المنزل من السماء، وكل ذلك تحت غطاء "اتباع الآثار" [١]، فتراهم يقررون أقوال الرجال ثم يُلزمون الناس باتباع أقوالهم مجردة عن الدليل بدعوى لزوم اتباع الآثار!! ... فمنهم من اتخذ أحمداً الشيباني ومنهم من اتخذ الشافعي الإدريسي ومنهم من اتخذ مالكاً المدني عليهم رحمة الله تعالى، ولاشك في إمامة هؤلاء الأعلام ولكنهم يستأنس بكلامهم وفهومهم واختياراتهم وليس لأحد اتباعهم في جل ما اجتهدوا فيه من رخصٍ وعزائم في دين الله تعالى، وليس لأحد أن ينصِّب للأمة علماً كائنا من كان يدعو إلى أقواله ومنهجه وطريقته ومذهبه، فيوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ وما اجتمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم، ومن فعل ذلك فقد ضل سواء السبيل وحاد عن الصراط المستقيم.

ولا ينقضي العجب ممن يجهر باتباع الإمام أحمد وهو القائل: «الِاتِّبَاعُ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّجُلُ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَصْحَابِهِ ثُمَّ هُوَ بَعْدُ فِي التَّابِعِينَ مُخَيَّرٌ»[٢]، وقال: «لا تقلدني ولا تقلد مالكًا، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا»[٣]، وقال الشافعي: «إذا وجدتم في كتابي

---

[١] واتباع الآثار بمعناه الصحيح هو اتباع سنة النبي ﷺ وما اتفق عليه الصحابة ـ وقد رددنا في كتابنا الإقناع بمنزلة الآثار من الموقوف والمرفوع وحجية الإجماع على هذه الدعوى وبينا أن الآثار هي سنة النبي ﷺ أما غيرها من أقوال الرجال فكلٌ يؤخذ من قوله ويرد.

[٢] الفقيه والمتفقه ٤٣٩/١

[٣] مسائل أبي داود ص٢٧٧

خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت»[١] ، ويقول مالك:« إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[٢]، وقال :«ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ»[٣]، وكلامهم رحمهم الله تعالى في هذا الباب كثيرٌ جداً[٤] حتى يعلم المنصف أنهم زهَّدوا في أنفسهم أن يُتخذوا بين الناس متبوعين دون الكتاب والسنة.

ومما يظهر به ضلال هؤلاء في منهجهم العملي هو دفعهم بما يسمونه بالأثار من أقوال الرجال في صدور الآيات المحكمات والنصوص الواضحات، فإذا قُررت مسألة هي من الوضوح بمكان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كمسألة الحاكمية تراهم يخرجون لك ببعض الأقوال التي يسمونها آثارا لهدم ما تقرر في الأصول المحكمات بأطراف كلام الرجال، وهذا من أفظع الجهل وأشنع الهوى فهل أقوال هؤلاء الرجال تخصص النصوص أو تنسخها!! أو هي حاكمة عليها أو مؤولة لها!! كل ذلك ليس لها بل ليس لها من الأمر شيء ولو كان قولاً لآحاد الصحابة كما قال عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ: أنا مَعْمَرٌ، عَنْ أَيُّوبَ، قَالَ: قَالَ عُرْوَةُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ تُرَجِعَنَّ فِي الْمُتْعَةِ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَلْ أُمَّكَ يَا عُرَيَّةُ، فَقَالَ عُرْوَةُ: أَمَّا أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ فَلَمْ يَفْعَلَا فَقَالَ ابْنُ

[١] كتاب مسألة الاحتجاج بالشافعي ص٧٢؛ ومناقب الشافعي ٤٧٢/١،

[٢] إيقاظ الهمم ص ٧٢.

[٣] رواه ابن عبد البر في الجامع (٢/ ٩١) وهذا المعنى مروي عن ابن عباس ومجاهد.

[٤] انظر (جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٣٢، و (إعلام الموقعين) ٢/ ١٧١،و (فتح المجيد) ص٣٨٣.

عَبَّـاسٍ: وَاللَّـهِ مَـا أَرَاكُـمْ مُنْتَهِـينَ حَتَّى يُعَـذِّبَكُمُ اللَّـهُ، نُحَـدِّثُكُمْ عَـنِ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ وَتُحَـدِّثُونَا عَـنْ أَبِي بَكْـرٍ وَعُمَـرَ »، وَذَكَـرَ الْحَـدِيثَ قَـالَ أَبُـو عُمَـرَ: «يَعْنِي مُتْعَـةَ الْحَجِّ وَهُـوَ فَسْـخُ الْحَـجِّ فِي عُمْـرَةٍ»[1]، قـال الخطيـب البغـدادي معلقـا على قـول عـروة: « هُمَـا وَاللَّـهِ كَانَـا أَعْلَـمَ بِسُـنَّةِ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ وَاتْبَـعَ لَهَـا مِنْـكَ » قُلْـتُ: قَـدْ كَانَ أَبُـو بَكْـرٍ وَعُمَـرُ عَلَى مَـا وَصَـفَهُمَا بِـهِ عُـرْوَةُ ، إِلَّا أَنَّـهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَلَّـدَ أَحَـدٌ فِي تَـرْكِ مَـا ثَبَتَـتْ بِـهِ سُـنَّةُ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ"[2] ، وعَـنْ سَـالِمٍ قَـالَ: سُـئِلَ ابْـنُ عُمَـرَ عَـنْ مُتْعَـةِ الْحَـجِّ فَـأَمَرَ بِهَـا، فَقِيـلَ لَـهُ إِنَّـكَ تُخَـالِفُ أَبَـاكَ قَـالَ: " إِنَّ أَبِي لَـمْ يَقُـلِ الَّـذِي تَقُولُـونَ، إِنَّمَـا قَـالَ: أَفْـرِدُوا الْعُمْـرَةَ مِـنَ الْحَـجِّ أَيْ أَنَّ الْعُمْـرَةَ لَا تَـتِمُّ فِي شُـهُورِ الْحَـجِّ إِلَّا بِهَـدْيٍ، وَأَرَادَ أَنْ يُـزَارَ الْبَيْـتُ فِـي غَيْـرِ شُـهُورِ الْحَـجِّ فَجَعَلْتُمُوهَـا أَنْـتُمْ حَرَامًـا وَعَـاقَبْتُمُ النَّـاسَ عَلَيْهَـا وَقَـدْ أَحَلَّهَـا اللـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ وَعَمِـلَ بِهَـا رَسُـولُ اللـهِ ﷺ " قَـالَ: فَـإِذَا أَكْثَـرُوا عَلَيْـهِ ، قَـالَ: «**أَفَكِتَـابُ اللـهِ عَـزَّوَجَـلَّ أَحَـقُّ أَنْ يُتَّبَـعَ أَمْ عُمَـرُ**؟»[3]، هـذا هـو المـنهج العملي الـذي قـرره الصحابة في تقـديم كـلام اللـه وسـنة ورسـول اللـه ﷺ على كـلام غيـرهم ولـو كـان كـلام خيـر الأمـة بعـد النبي ﷺ أبـي بكـر وعمـر، قـال الشـافعيُّ: "أجمـع النَّـاسُ على أنَّ مَـن اسـتبانت لـه سـنَّةُ رسـول اللـه ﷺ لَم يكن له أن يَدَعها لقول أحدٍ"[4].

[1] جامع بيان العلم وفضله ١٢٠٩/٢، قال الهيثمي في "المجمع"٣ /٢٣٤ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ " انتهى.

[2] "الفقيه والمتفقه١ /٣٧٨

[3] رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم ٨٨٧٥

[4] مفتاح الجنة، الاحتجاج بالسنة للسيوطي ص (٤٢) .

وهـذا هـو المـنهج الـذي اتخـذه الجمودية في التشـغيب بـبعض كـلام الأعـلام[١] على الأصـول القطعيـة، وضـرب كلامهـم بعضـه بـبعض وتحكـيم بعـض الروايـات الضـعيفة والشـاذة الموافقـة لأهـوائهم، فتـراهم يسـتدلون بـبعض كـلام الرجـال الـذي يسـمونه آثـارا فـإذا جئـتهم بمـا يخـالف قـولهم مـن جـنس مـا اسـتدلوا بـه مـن كـلام الأعـلام ظهـر معـدنهم وفضـح مـنهجهم وبـان أنهـم لا يأخـذون إلا مـن قطـب واحـد قـد عكفـوا على أقوالـه ورواياتـه، وفي المقابـل تجـد فـيهم مـن لـه الجـرأة في الـدين على تكفيـر مـن خـالف قـول إمامـه فيمـا يـرى أنـه لا يسـوغ فيـه الخـلاف فجمعوا بين التقليد الأعمى والاجتهاد الأخرق.

كـل ذلـك سـارع في طفـرة النظاميـة وأذكى فـيهم الشـطط في الـدين وقـادهم إلى رفـض علـوم الأولـين بـل والطعـن في وفـاق الصـحابة أجمعـين فخرجـوا علـى جماعـة المسـلمين ونصـبوا عقـولهم حاكمـة دون فهـوم المتقـدمين ... لا شـك أن هـذا الانحـراف كـان ثمـرة الجـدال المتواصـل علـى مواقـع التواصـل، الجـدال الـذي قـاد خفـاف العقـول وأصـحاب السـطحية العلميـة إلى لـزوم هـذه الأصـول البدعيـة في التنصـل مـن كـل فهـم غيـر فهـومهم، فعَـنْ عَمْـرو بْـنِ قَـيْسٍ قَـالَ:" قُلْـتُ لِلْحَكَمِ : مَا اضْطَرَ الْمُرْجِئَةُ إِلَى رَأْيِهِمْ قَالَ «الْخُصُومَاتُ»[٢].

قـد نشـدُّ على أيـدي النظاميـة ولكننـا نعلـم أن وقـود هـذه البدعـة وغـذاؤها هي الجموديـة التي تسـمت زورا بالأثريـة فهـي حطـب الشـطط الـذي أدى بهـم إلـى الخـروج على جماعـة المسـلمين الأولى، وسـيأتي معنـا في الكلمـات القادمـة ـ بحـول اللـه قوتـه ـ بيـان ذلـك بيانـا عمليـا واللـه الهـادي إلى سـبيل الرشـاد وإن كـان مـن قـول يوصِّـفُ حالنـا فمـا أراه إلا قـول عَبْـدِ اللَّـهِ بْـنِ الْمُبَـارَكِ لمـا قـال: «أَعْلَـمُ أَنِّي أَرَى أَنَّ الْمَـوْتَ الْيَـوْمَ كَرَامَـةٌ لِكُـلِّ مُسْـلِمٍ لَقِـيَ اللَّـهَ عَلَى السُّـنَّةِ فَإِنَّـا لِلَّـهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعُـونَ فَـإِلَى اللَّـهِ نَشْـكُو وَحْشَـتَنَا وَذَهَـابَ الْإِخْـوَانِ وَقِلَّـةَ الْأَعْـوَانِ وَظُهُـورَ الْبِـدَعِ

[١] وصـواب الأمـر هـو توجيـه كـلام الأعـلام بمـا يتناسـب مـع الأصـول القطعيـة وتخـريج كلامهـم علـى ضـوء ذلـك، ولـيس الدفع به على رد الأصول ونقضها.

[٢] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٨٤٩

وَإِلَى اللَّـهِ نَشْـكُو عَظِـيمَ مَـا حَـلَّ بِهَـذِهِ الْأُمَّـةِ مَـنْ ذَهَـابِ الْعُلَمَـاءِ وَأَهْـلِ السُّـنَّةِ ، وَظُهُورِ الْبِدَعِ»[١].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين

يتبـع ...

[١] البدع لابن الوضاح برقم ٩٧